مجلة دراسات العالم الإسلامي، ٥-١&٢ (فبراير ٢٠١٢)، ص ١٠-١٩
Kyoto Bulletin of Islamic Area Studies, 5-1&2 (February 2012), pp. 10–19

علاقة العشق بالتهذيب عند محمد إقبال

زاهد منير عامر*

فى ظلام الليل، عندما يغط الناس فى نوم عميق، سُمع صوت غير معروف منبعث من المكتبة، كانت عثة الكتاب تشكو ألمها حيث إنها لم تجد راحتها بين الكتب. وكانت هناك شمعة تحارب الظلام الحالك، ولم يكن هناك ما يشارك العثة ألمها إلا فراشة ضحت بنفسها على لهب الشمعة. قالت العثة للفراشة «منذ وقت طويل وانا أطالع كتب الفارابي (٥٠٨ م / ١٢٠١م)[١] وابن سينا (٩٨٠ م / ١٠٣٧م) ولكني ما زلت حتى الآن لا أفهم فلسفة الحياة» لكن الفراشة التي تحترق أجابت «انت لم تختاري الطريق الصحيح لفهم الحياة وفلسفتها؛ فحقيقة الحياة لا توجد فى الكتب، إن الحياة تعني سلسلة من الاحتراق، فهذا يجعل الحياة أكثر انضباطا ويمنحنا أجنحة
نحلّق بها فى الفضاء

سمعت: بمكتبى ليلة — ينادى الفراشة سوس الكتاب
يقول مررت بكتب ابن سينا — ونقبت فى كتب الفاريابى
ولم أدرِ حكمة هذى الحياة — وما زلت من ظلمتى فى حجاب
تجيب الفراشة فى حرقة: — أرى نكته لا ترى فى كتاب
رأيت الكفاح يعد الحياة — رأيت الكفاح يمد الحياه[٢]

هذه المحادثة الشعرية اخترتها من كتاب (بيام مشرق) لمحمد «إقبال»، فإقبال جعل الفارابي وابن سينا والعثة علامات تدّل على العقل والرأس والمخ. فالفراشة علامة الوجدان والمشاعر والأحاسيس والعشق، وهذه المحادثة تجذب انتباهنا أيضا لمحادثة الأخرى (محاورة علم وعشق) ففي هذه القصيدة أيضا شخصيتان مثل العثة والفراشة، والشاعر ينقل حديثهما، فالعلم المغرور يقول للعشق:

أنا سر الكواكب والجهات — وفي قيدي ثوى ماض وآت
وعيني حدقت فيما أمامى — وما نظرى وراء السابحات؟
وكم نغمت في عودى وبوقى — وأسراري عرَضْتُ بكل سوق

ويقول للعشق:

بسحرك سجرت هذى البحار — وملء الجو سُمُّك والشرار
وكنت لي الصديق فكنت نورا — ونورك مذ هجرت حماي نار
ولدت الأمس في حرم الرحيم — وصرت اليوم فى قيد الرجيم
هلم فرد روضا ذا اليبابا — وردَ مشيب دنيانا شبابا

---

* رئيس قسم كرسى ظفر على خاں، معهد دراساتِ الابلاغيات بجامع بنجاب ـ لاهور ـ باكستان

١ لعلّ المراد به اسم أو سلوك لأبى نصر محمد ابن الفرخ الفارابى (٨٧٢ - ٩٥٠)

٢ محمد إقبال «بيام مشرق»/ «كليات إقبال»(الفارسية) لاهور:شيخ غلام علي ايند سنز-بدون التاريخ ص ٢٧٣
أخذت ترجمة العربية من «رسالة الشرق» ترجمة : «بيام مشرق» / «ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة» تحقيق: سيد عبد الماجد الغورى دمشق / بيروت: دار ابن كثير ٢٠٠٣م، ج١، ص ٢٨٦.

هلم بذره من نار قلبي أقم في الأرض فردوسا عجابا
كلانا الدهر خل لا يجور للحن واحد بم وزير[٣]

وهنا يظهر السؤال: لماذا قدَم الشاعر هذا التعارض بين العلم والعشق؟ لماذا يجذب انتباهنا لتلك المعارضة؟ الجواب أن هذا هو الموضوع الرئيسي لفلسفته الشعرية، فهذا ما تعلمه «إقبال» من الكون والحياة، فهو في هذا الموضوع يرُد المنطق والعقل، ففي البداية يجب علينا أن نتعرف على خياله وأفكاره عن العقل، فمعنى العقل في اللغة العربية هو القدرة على التفرقة والتمييز بين الصواب والخطأ والقدرة على الاختيار الأمثل. إن في هذا العالم اتجاهات كثيرة، والإنسان بعقله يختار أفضلها، ويعرف كيف يواجه مشاكلها، فالعقل هو الذي ميَز الإنسان على الحيوان الذي يملك عقلا ولكنه لا يرتقي أبدا إلى عقل الإنسان، فالعقل وسيلة العلم، ولكنها وسيلة ناقصة. إن إقبال مثل أستاذه الروحي مولانا (جلال الدين الرومى) يعتقد أن العقل لا يستطيع أن يدرك كُنْه الحياة بالكلية؛ فالعقل مثله كمثل اليد أو العين أو الأسنان، فكلها أعضاء تقوم بوظيفتها المحددة لها، فالعقل يمكنه إدراك الأشياء الطبيعية. والشاعر يتمسك بهذه الفلسفة منذ بدء شاعريته إلى النهاية، فهو يؤمن أن العقل والعلم كليهما لخدمة الحياة – فالعلم يمكن أن يعطيك الأمن لكنه لا يعطيك البصيرة فى الحياة. إن العلم والفن كليهما خادمان للحياة، و«إقبال» ينصح القارئ ألا يعتمد على العقل حيث إنه سراج يضيء لنا الطريق فقط لكنه لا يوصلنا للهدف.

إنما العلم وقاء للحياة إنه للذات تقويم النجاح
للحياة العلم والفن خدم للحياة العلم والفن حشم[٤]

فالعقل مثل النور لا يمكنه معرفة أسرار الذات الإنسانية، إنه يعطيك حياة بعيدة عن الحقيقة، وأول مجموعة شعرية لإقبال (صلصلة الجرس) فيها قصيدة بعنوان (العقل والقلب) وفي هذه القصيدة قدَم مقارنة بين العقل والقلب، ولكنها في الحقيقة مقارنة بين العقل والعشق، فإقبال قارن بين العقل والعشق في قصائد أخرى أيضا – في كثير من القصائد عرض «إقبال» العقل كعنصر ضعيف، وفي نفس الكتاب قصيدة عنوانها (عشق وموت) مستوحاة من الشاعر الإنجليزي (تينيسون) فهذه القصيدة تبرز فكر «إقبال». وهذه المقارنة بين العشق والعلم مستمرة إلى مجموعة شعرية أخرى تسمي (بال جبريل) تؤيد العشق وتخالف العقل وهذه الفكرة أيضا تظهر في كثير من غزلياته. مثلا

مع أن العقل ليس بعيدا عن «العتبة»
فإن نصيبه هو عدم الحضور[٥]

لقد منحني العقل النظرة الحكيمة
وعلمني العشق حديث «النشوة الجريئة»[٦]

---

٣ المرجع السابق ج ١، ص ٢٨٣

٤ «الأسرار والرموز» / «كليات إقبال» (الفارسية) ص ١٧، ترجمة: عبد الوهاب عزام «الأسرار والرموز» / «ديوان محمد إقبال» ج ١، ص ١٣٧

٥ محمد إقبال «بال جبريل» / «كليات إقبال» (الأردية) لاهور: شيخ غلام علي ايند سنز– ص ٣٣٥، ترجمة: جلال الدين الحفناوي «جناح جبريل» القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص ٥٩ (بتصرّف)

٦ كليات إقبال (الأردية)، ص ٣٤٣؛ جناح جبريل، ص ٦٨ (بتصرّف)

العقل محتال «يتنكّر بأزياء عديدة»
والعشق مسكين لا هو شيخ ولا هو زاهد ولا هو حكيم[٧]

إن «إقبال» ينتقد الأعمال التي تعتمد على العقل فقط فهو يرى أن العقل والذهن قاصران فالعقل يتكيف حسب المواقف، أما الحب فهو عاطفة معصومة تُذعن للعقل. في ديوانه الثالث (ضرب الكليم) نجده أيضا فضل عاطفة الحب على العقل فهو يخبرنا أن العقل يجعلنا نميز بين النافع والضار فقط. بينما حرب الحياة يمكنها الانتصار بمساعدة عاطفة الحب فقط. إن العقل يمكنه الانتصار على النجوم ولكنه إذا لم يجتمع مع الحب في قلب الإنسان فكل شيء سيصبح بلا فائدة. العقل الفقير لا يمكن أن يكون مرشدا جيدا لك بل هو ليس أهلا لإن يقود قافلة الحياة. إن الحياة ليست حسابات فقط. فالحسابات عمل العقل. فعدم مساعدة العقل هذه يمكننا أن نراها في ديوانه (هدية الحجاز). فالعقل مشغول دائما في الشكوك والحسابات. فالذي يؤمن بالعقل يعبد الأصنام ولا يعبد إلهه الحقيقي. إن الذين يعتقدون في الحب طريقهم مختلف عن الذين يعتقدون في العقل.

ذلك الفتق القديم الذي لم يستطع العقل رتقه
يخيطه العشق دون حاجة إلى إبرة أو خيط الرفاء[٨]

إن «إقبال» نفسه يبين عدم جدوى العقل ويتفق مع الفيلسوف الألماني (عمانويل كانت. ٢٢ أبريل ١٧٢٤—١٢ فبراير١٨٠٤) الذي يصف عدم جدوى العقل في كتابه المعروف (نقد العقل المحض[٩]) فدلائله تبطل دلائل كل الفلاسفة الذين يؤيدون العقل.

"His Critique of Pure Reason revealed the limitations of human reason and reduced the whole work of the rationalists to a heap of ruins."[١٠]

فهو يعتقد أن العقل مبنى على إدراك الحواس فقط وهذا المعنى قريب مما كان يقوله الفلاسفة السوفسطائية[١١]. و«إقبال» يقول: هذا الكتاب يظهر حدود العقل الإنساني ويحطم آراء الفلاسفة العقليين. وفي قصيدته (الحكماء) «إقبال» يقول عن (عمانويل كانت)

فطرة ضاءت شرابا ولها
نجم كأسٍ من حريم الأزل[١٢]

نفس الفكرة موجودة في كتاب آخر له. وهذا يبين أن هذه الفكرة موجودة في كتبه من البداية حتى

---

٧ كليات إقبال (الأردية)، ص ٣٥٢؛ جناح جبريل، ص ٧٩ (بتصرّف)

٨ محمد إقبال «ارمغان حجاز» / «كليات إقبال» (الأردية)، ص ٦٧٩، ترجمة: دكتور سمير عبد الحميد إبراهيم نوح «إقبال وديوان أرمغان حجاز» لاهور: إقبال أكادمى باكستان، ٢٠٠٤م، ص ٣٨٥.

٩ *The Critique of Pure Reason* (German: *Kritik der reinenVernunft*) by Immanuel Kant, first published in 1781, second edition 1787, is one of the most influential works in the history of philosophy.

١٠ Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam, edited and annotated by: M.Saeed Sheikh. Lahore: Institute of Islamic Culture 2006, p.17.

١١ المدرسة الفلسفية لقرن السادس والسابع قبل الميلاد المسيح.

١٢ «بيام مشرق»/ «كليات إقبال» (الفارسية)، ص ٣٨١، ترجمة: دكتور عبد الوهاب عزام «رسالة الشرق» / «ديوان محمد إقبال» ج ١، ص ٣٣٤.

النهاية وكان متمسكا بهذا المبدأ طول حياته. وفي كل وقت هو يؤكد بتفوق الحب والعشق والقلب على العقل.

فالعشق كلمة عربية أيضا مثل العقل. فالعشق هو الحب الشديد تجاه شيء ما. وتحية المتسابقين في بداية السباق هي نوع من أنواع العشق. والعلماء يقولون إن العشق نار تحرق كل شيء ما عدا المحبوب.

وكما رأينا تطور فكر «إقبال» عن العقل نستطيع أن نرى تطور فكرته عن العشق، فهو يرى أن العقل يفنى في حين أن العشق هو الذي يبقى فهو يرى أن العقل كالغمد والعشق هو السيف، فالعشق على نقيض العقل له القدرة على شفاء الجراح القديمة، ولكي نفهم نظرة «إقبال» عن العشق والعقل لا بد أن نقرأ قصيدته في ديوانه الأول باللغة الأردية (صلصلة الجرس) بعنوان (عقل وعشق)، ففي هذه القصيدة يشرح وجهة نظره عن العشق والعقل، فهذه هي القصيدة الأولى الكاملة حول هذا الموضوع ولكنها لا تختلف عن باقي القصائد التي كتبها بعد ذلك في نفس الموضوع حتى آخر عمره، وكما قال الدكتور خليفة عبد الحكيم «لا نجد شاعرا أو فيلسوفا أو صوفيا شرح هذا الموضوع مثل ‹إقبال›» فإقبال كتب مئات الأشعار في المقارنة بين العقل والعشق وكون في ذلك الكثير من الأبعاد الجميلة، فعصارة أفكاره ظهرت بوضوح وجمال في هذه الأشعار.[١٣]

في يوم من الأيام قال العقل للقلب: أنا المرشد لكل ضال
ومع أنني على الأرض إلا أن الفلك يدور حولي، فانظر إلى أي حد يمكنني أن أصل إليه
إن عملي في هذه الدنيا هو الهداية، أنا مثل الخضر صاحب القدم المباركة
انا مفسر كتاب الحياة ومظهر شأن الكبرياء
وما أنت إلا قطرة دم ولكنني اثير غيرة الياقوت غالي الثمن
عندما سمع القلب ذلك قال: كل هذا صحيح ولكن حدق فيّ لكي تعرف من أنا
أنت تدرك سر الحياة أما أنا فأراها رأي العين
أنت مرتبط بالظاهر، أما أنا فعليم بالباطن
العلم منك والمعرفة مني أنت باحث عن الله أما أنا فالله يتجلّى فيّ
إن عدم الاستقرار هو نهاية العالم وأنا الدواء لهذا المرض
أنت شمع محفل الصداقة وأنا مصباح محفل الحسن
أنت متشبث بالزمان والمكان وأنا عليم بطائر سدرة (المنتهى)
انظر الى مكاني وكم بلغت من السمو والرفعة أنا عرش رب ذي الجلال[١٤]

في الأبيات الخمسة الأولى من هذه القصيدة يظهر صوت العقل بخصائصه، فالعقل يعلم الناس طرق الحياة، إنه يفتح للإنسان كتاب الحياة وهذا يبين عظمة الله تعالى على الأرض. وفي الأبيات السبعة الأخيرة يتضح صوت القلب، فالعقل يمكنه حل المشكلات ولكن ذلك قد يتطلب وقتا كثيرا بينما القلب يمكنه ذلك بمجرد النظر فى المشكلة، فالعقل يدرك ظواهر الأشياء بينما يدرك القلب بواطنها.

حقا إننا نحصل العلم بالعقل ولكن العلم الإلهي يحصل بالقلب، وإذا تجاوز العلم حدوده أدى إلى اضطراب في النفس في حين نجد الاطمئنان لدى العارفين بالله، فالحب يتعلق بالقلب لا بالعقل. فالعقل يبحث عن الصدق ولكن الصدق والحسن الحقيقي موجودان في القلب الحي، وفي نهاية القصيدة يقول القلب في صفاته «إنك تستطيع أن تدرك عظمتي عندما تعلم أن الله خالق الكون ينزل عليَّ»، هذه القصيدة لا

١٣ تصور الحب في شعر إقبال (الأردية) في «مطالعه إقبال» ترجمة: گوهر نوشاہی لاهور: بزم إقبال، ١٩٨٣م، ص ١٨٦

١٤ «بانگ درا» فى «كليات إقبال» (الأردية)، ص ٤١، ترجمة: جلال السعيد الحفناوى «ديوان صلصلة الجرس»، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص ٤٧.

تشرح فكرة «إقبال» عن العشق والعقل فقط ولكنها توضح أيضا مصطلحاته للحب والعقل.

إن فكرة العشق موجودة بكثرة في الشعر، فعند كل الشعراء نستطيع أن نجد موضوع الحب والمحبوب وعلاقاته، والشعراء يبحثون عن هذا الموضوع بشوق ولهفة، فإقبال كان أيضا شاعرا ويستخدم فكرة الحب، وشعره الأول يعكس فكرة الحب العادي ولكن ذلك لم يستمر طويلا فهو وجد فكرته الخاصة بسرعة، والآن كل أفكاره تشتمل على فكرة العشق وأساس هذه الأفكار فلسفة الذات، وهذا يعني التطور والارتقاء بالذات الإنسانية، ففي ديوانه الأول باللغة الفارسية (أسرار الذات) شرح ثلاث درجات لفلسفة الذات.

وفي بحث عن أصل الحياة نجد أن «إقبال» جزَأ ذلك فقال إن الإنسان القديم بحث عن الله وتوصل إليه ولكن مشكلة إنسان العصر الحديث أنه يبحث ذاته وشخصيته ولا يستطيع أن يجدها،[١٥] والشخصية عند «إقبال» تعني الحماس، والحماس عند «إقبال» يمثل قوة كبيرة عند الإنسان، ولتقوية هذا الحماس لدى الإنسان فهو يحتاج لبذل الطاعات والحسنات التي تعتبر قوة كبيرة في نظر «إقبال»، وعلى النقيض فإن السيئت تؤدي إلى ضعف النفس، فهو يقول «أعط الإنسان إحساسا بعظمة شخصيته ثم دعه ينطلق في أرض الله بدون خوف، فإذا أعطينا الإنسان ذلك الإحساس بالثقة والاحترام فسوف ينعكس ذلك على سلوكه وسيصبح تقيا محترما للآخرين،[١٦] ولاستمرار ذلك الحماس والبعد عن المخاوف لا بد من وجود الحب في النفس الإنسانية، والعقل كالنهر الضيق الذي يجب أن يعبره الإنسان ليصل إلى بحر الحب الكبير فالجواهر توجد في البحار لا في الأنهار» لذلك فهو لا يطمئن إلى العلم المبني على العقل الذي يمثل الأنهار الضيقة، وفي المقارنة بين العلم والعشق

يقول «إقبال»:

قال العلم لي: إن العشق جنون
وقال العشق لي:إن العلم ظن وتخمين
فيا أسير الظن والتخمين! لا تصبح سوسا للكتب
العشق كله حضور، والعلم كله حجاب
ومعركة الكائنات من لهيب العشق
العلم مقام الصفات، والعشق متعة الذات
العلم سكون وثبات والعشق حياة وممات
العلم سؤال ظاهر، والعشق جواب خفي
معجزات العشق هى الحلم والفقر والدين
في عباد العشق من أصحاب العروش والتيجان
العشق هو المكان والمكين! العشق هو الأرض والزمان
العشق صورة اليقين، واليقين فتح الباب[١٧]

---

١٥ Latif Ahmad Sharwani: *Speeches, Writings and Statements of iqbal*, Lahore: Iqbal Academy Pakistan, 2005. Iqbal has used words of 'Ancient India' and 'Modern India' instead Ancient Man and Modern Man. p.162.

استخدم إقبال الألفاظ هند القديم وهند الجديد بدلا من الإنسان القديم والإنسان الجديد ص ١٦٢.

١٦ Muhammad Iqbal: "Islam As A Moral and Political Ideal" included in *Speeches, Writings and Statements of iqbal* op-cit: p. 103.

١٧ «ضرب الكليم» / «كليات إقبال» (الأردية)، ص ٤٨٢، ترجمة: دكتور جلال السعيد الحفناوي، «ديوان ضرب

إن العلم المبني على العقل فقط عند «إقبال» هو علم بلا روح، فالفلسفة المبنية على العقل في نظر «إقبال» فلسفة ميتة أو في النزع الأخير، فالعلم المبني على القلب هو العلم الحي، وهذا النوع من العلم هو الذي يبقى لأن مكانه القلب الحاضر، وحصول هذه الحالة لا يتحقق إلا عن طريق الحب، فهو لا يحب العقل الذي بُني عليه العلم الحديث، ولا يحب العلم المبني على العقل، فهو يعتقد ان العلم يُحدِث فجوة كبيرة بين الإنسان وحقيقة الحياة، ولكن إذا اتسعت نظرة العقل وارتفعت لتسمو فوق الذات وتشمل العالم فيمكن أن تكون مقبولة، وهذا الاختلاف بين العقل القاصر على الذات والعقل الذي يسمو فوقها كالاختلاف والفرق بين العندليب والصقر، وهذا الاختلاف بين العقل القاصر والعقل المحلّق فوق حدود النفس كالفرق بين جناح العندليب وجناح الصقر، فأحدهما يبحث عن غذائه في الأرض أما الآخر فيحلق في أعالي السماء ليحصل على صيده والفرق ظاهر. وهذان النمطان من العقل مختلفان، فالعندليب والصقر كلاهما يحملان جناحين ولكن شتان بينهما.

أين من خفق الشواهيـــــــن جناح العندليب
أين من يلقط من حب على الأرض تريب
من فتى يلقط عنقو د الثريا لا يخيب
أين من يسري بروض كنسيم في هبوب
من بصير في ضمير الزهـــــــر للسر يصيب
أين فوق الارض ظن سار أو شك مريب
من طموح جاوز الأفلا ك للمسرى الرحيب[١٨]

فكما صور «إقبال» العشق أنه مبني على حضور القلب فهذا يبين أن «إقبال» يعتقد أن العشق هو أفضل وأطيب شي، فالعشق يرتبط بالإنسان في صداقة حقيقية، ولكن العقل والعلم كالسراب، فالعشق عند «إقبال» قادر على فك رموز الكون والحياة، فهو يرى أن العشق له دور فعال في كل نواحي الحياة، فالصور المستوحاة من وحي العشق تبقى وتدوم، فهذا النوع من العشق ينعكس من الإنسان الكامل الشخصية، ولذلك فهو يقول إن العشق كنفس جبريل، كقلب الرسول، ككلمة الله.

إن عمل الزاهد يزداد رونقا بالعشق
فالعشق أصل الحياة والموت محرم عليه
وبالرغم من سرعة فيضان الزمن وتدفقه
فالعشق ذاته سيل فلتمنع هذا السيل
إن تقويم الحب لا يتم إلا في عصر الصفاء
وليس له اسم في الزمان كذلك
العشق هو أنفاس جبريل، العشق هو قلب المصطفى
العشق رسول الله العشق كلام الله
وجه الوردة مشرق من شكر العشق
العشق هو الصهباء الخالصة العشق كأس الكرام.
العشق فقيه الحرم، العشق أمير الجنود

الكليم» القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص ٣١.

١٨ «بيام مشرق» / «كليات إقبال» (الفارسية)، ص ٣٥٩، ترجمة: دكتور عبد الوهاب عزام، «ديوان محمد إقبال»، ج. ١، ص ٣٢٦.

العشق ابن سبيل له آلاف المقامات
إن نغمة وتر الحياة من العشق
يا حرم قرطبة وجودك من العشق
إن معجزة الفن من ظهور دماء القلب
سواء كانت في اللون أو في حجار اللبنات في القيثارة
أو الأصوات في الكلمات.[١٩]

وكلمة العشق كان لها قدر كبير قبل «إقبال» في تعاليم الصوفية، فالعشق عند الصوفية هو عشق الإنسان لله، فهذا المفهوم هو مفتاح تعاليم الصوفية ولكن «إقبال» يختلف مع وجهة النظر الصوفية التي ترى أن العشق الإلهي لا يتحقق إلا بأن تفنى نفسك في سبيل ذلك الحب بينما يرى «إقبال» أن حصول هذا الحب يكون بتربية النفس وإذا تحققت تربية النفس فلن تموت، وهذا الموضوع ظهر واضحا في قصيدة من قصائده الأولى بعنوان (عشق وموت) وقد ظل متمسكا بهذه الفكرة لآخر عمره، ولهذا فقد قدم هذا التصور الرائع البعيد عن مفهوم الصوفية، فهذه العلاقة بين الإنسان والله بهذا المفهوم لا يمكن أن تموت، ولهذا السبب إقبال يحب العشق ويرفض العقل، هو يرفض العقل لأنه عاجز عن حل أسرار الكون والحياة، ولهذا السبب فقد يئس من العقل وجذب القارئ إلى العشق. فهو يخبر القارئ أن العقل كالسراج يضيء الطريق فقط ولكن لا يوصل إلى الهدف. وسبب تفضيل «إقبال» للعشق على العقل أن العقل يدرك الظواهر لكن لا يمكنه إدراك بواطن الأمور، وهذا يعني أن العقل يعرف المادة ولكنه لا يعرف الحياة، ويجعل مفهوم الحياة مشوها.

لقد قضى «إقبال» جزءا مهما من حياته في أوروبا، وشاهد من قريب المجتمع الأوروبي وتهذيبه، وشعر أن الغرب يسعى لفهم الحياة بواسطة العقل، ولكنه لا يحب هذه الطريقة، وقد نقد أيضا تعليم الغرب. وبعد مرور فترة من الوقت بدأ يفكر في المزج بين العقل والعلم فهو يرى أن الذي يمزج بين العشق والعقل عضو نشط في العالم، وهو هدف العقل وعصارة الحب وحرارة الحياة في هذا العالم البارد.

في بداية حياته العملية قام «إقبال» بترتيب ونقد كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) للشيخ عبد الكريم الجيلي (٧٦٧-٨٠٥) و«إقبال» في هذا الكتاب يقول إن كلمة القلب ليس من السهل توضيحها وفي شرح وجهة نظر الجيلي يقول «إقبال»:

"He gives a very mystical diagram of and explains it by saying that it is the eye which sees the names, the attributes, and the Absolute Being successively. It owes its existence to a mysterious combination of soul and mind and becomes by its very nature the organ for the recognition of the ultimate realities of existence."[٢٠]

وبعد فترة من بداية حياته العملية نراه قد طوّر نظريته عن هذا الموضوع، فقد أعلن أن العقل إذا استطاع أن يأخذ حرارة الإحساس فإنه بذلك يكون قد تحول إلى قلب، وإذا فقد القلب الحرارة فقد مات، «لقد سألت عن القلب الذي في صدرك، إنه عقلك الذي قد تحول مع حرارة الإحساس،

---

١٩ «بال جبريل» / «كليات إقبال» (الأردية) ص ٣٨٦، ترجمة: «جناح جبريل» مصدر المذكور ص ١٢٢-١٢٣.

٢٠ Muhammad Iqbal, "The Doctrine of Absolute Unity as Expounded by Abdul Karim al-Jili" Included in *Speeches, Writings and Statements of Iqbal*, *Op-Cit*, p. 77.
For Jili's original work, see *Al-Insan al-Kamil fi Marifa al-Awakhir wa-l-Awael,* Cairo: Al-Maktaba al-Taufeeqia, Muhammad Izzat (ed.), ND.

لنطرة على عمل الأصلي للجيلى: أنظر الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوايل، القاهرة: المكتبة التوفيقية، تحقيق محمد عزة، بدون التاريخ.

فعندما يحس فهو حي ولكن عندما يفقد القدرة على الإحساس فإنه يفنى» هذه الأفكار تعكس اعتقاد «إقبال» أن العقل عندما يسمو ينقلب إلى الوجدان، والوجدان تجليل العشق، فامتزاج العقل بالوجدان مقبول لدى «إقبال»، وفي عمله العظيم (رسالة الخلود) يقول على لسان (سعيد حليم باشا. ١٨ يناير ١٨٦٥-٦ ديسمبر ١٩٢١، الوزير الأكبر في الدولة العثمانية (١٩١٣-١٩١٦) ولد في القاهرة وكان حفيد محمد على باشا) فالعقل إذا اكتشف الحقيقة يمكنه صنع عالم جديد، ولذلك فهو يطلب من القارئ العقلي أن يعلو ويمزج العقل بالعشق، لأن الحرارة الداخلية وحدها هي التي تنور الحياة وتمد صناعة العوالم الجديدة.

فالعقل يمكنه التوصل لمعرفة الإله بواسطة الحب، فإذا امتزج العقل بالعشق فإنه يمكنه صنع عالم آخر، ولذلك ينصح «إقبال» قرَاءه بأن يرتفعوا ويصنعوا تصميما لعالم جديد يمتزج فيه العقل بالعشق.

فعندما يمتزج العقل بالعشق فإنه يعرف الإله، وهذا الامتزاج يمده بالأساس القوى، وبهذه الطريقة يمكننا خلق عالم جديد، ويرى «إقبال» أيضا أن العقل يمكنه التلذذ بالنظر لكنه لا يمكنه أن يفنى نفسه مثل العشق.

وبعشق يعرف الله الذكاء صادقًا	والعشق بالذكاء ذا العلاء
وإذا العشق الذكاء صادقًا	عالما آخر قطعًا حققا
انهض العالم الثاني اصنعن	بالذكاء ذلك العشق امزجن
للفِرَنج شعلة قد بللت	قلبهم مات وعين فتحت
للحياة النار فلتشعل بنارك	اصنع العالم وارفع من منارك[٢١]

وبعد كل هذه التفاصيل تبقى بعض الأسئلة، فمثلا: كيف يبدأ العشق؟ ما مصدره؟ ما علاقته بالتهذيب؟ وكيف تكون الحياة بدون العشق؟

لو نظرنا لعالم الماديات سيكون من الصعب توضيح وجهة نظر «إقبال» عن العشق حتى للمتعلمين أنفسهم، والسبب أن الناس لا يعرفون إلا الصور المادية للحياة، ومشكلات الحياة العملية أبعدت الناس عن البحث في القلب والروح، وفي هذه الأحوال لا تتعجب إن بدا هذا الموضوع كأنه لا يزيد عن كونه تخيلات شاعر.

ولكن الحياة هي التجربة الإبداعية، فالإبداع درجة عالية لا يمكن تحققها بدون تركيز كبير الذي هو العشق الذي لو وجد في الإنسان فلن يحتاج إلى غيره، فإذا دخل الإنسان في تركيز العشق فقد دخل في التجربة الإبداعية في أي درجة من درجاتها، فالإنسان الخلاق الذي يصل إلى هذه الكيفية فعمله سيكون مختلفا ورائعا، ولكن عقله لن يفرق بينه وبين العشق، فالمحروم من الحب محروم من الحسنة، وهذا الشخص سيرتفع فوق الأرض وسيكون قائدا لقافلة الحياة، وبنظرة الإنسان العادية العشق معاملة خاسرة ولكنها ليست كذلك للعاشق لأن نظرته للمكسب والخسارة مختلفة عن الدنيا، فالعشق يغير نظرة الإنسان ومعاييره للنفع والضرر، فالأشياء المهمة للبشر ليست مهمة للعشق، وهذا الفرق يبدل كل حياته وطريقته، فالعشق عمل الأحرار لا العبيد، وتبعا لنظرة «إقبال» فإن العشق والدين يبعد أحدهما عن الآخر في العبودية، ففي العبودية لا قيمة للعشق ولا حقيقة فيه ولا علاقة في العبودية بين القول والعمل، فالعشق يعني يقين في وحدانية الله سبحانه وتعالى التي تمكن الإنسان

٢١ «جاويد نامه» / «كليات إقبال» (الفارسية)، ص ٦٥٣، ترجمة: «ديوان محمد إقبال»، جلد ٢، ص ١٩٨.

من مواجهة كل الصعوبات، وتجعل انتصاره غير محدود. فهو يقوم بأشياء تستحيل على الآخرين، وباختصار فالعشق أصبح الملك والعقل عبده.

ما علاقة العشق بالتهذيب؟ هذا سؤال مهم، فكلمة التهذيب تعني تربية النفس الإنسانية، كيف ننمي الأخلاق العليا لنجعل الحياة جميلة؟ يجيب «إقبال» إن روح التهذيب هي الدين، وليس الدين إلا العشق، فلا يمكن أن يكون الدين متينا بدون تعلم طرق العشق، فالعشق من الخارج قوي ولكنه من الداخل رقيق، ويمكننا تعلم امتزاج الخشونة بالنعومة عن طريق الذين يعرفون كيف يكون العشق.

إنه في الروح، في العين البصر — كامن فيها وها منها انتشر
والرماد العشق والعشق الضرم — يفضل الدين ومن علم أهم
وهو سلطان وبرهان مبين — وله قد عفر الكون الجبين
أمسنا والغد وهو اللازمان — ما دنا أو شط وهو اللامكان[٢٢]

إن عظمة العشق على قدر عظمة المحبوب، والصورة الأخرى للعشق العلاقة الغامضة مع الخيال أو العمل فكلما ارتفع الخيال ارتفع العشق والعكس صحيح.

وبعد تجربة «إقبال» الطويلة في الحياة وعلمه ونظرته يرى «إقبال» أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أفضل المحبوبين، فهو يخبر كل قرائه أن طرق العشق تبدأ من ذاته (صلى الله عليه وسلم)، فحب الرسول الكريم يعطي الجمال للحياة والدوام للعشق.

إنك لا تعلم من أين يبدأ العشق، فهو شعاع من شمس الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فأنت حي ما دامت روح الحب موجودة بداخلك، وهذا الحب يحفز إيمانك. ولهذا فإن العشق يعطي القوة للذات الإنسانية، وهذه القوة تعطيه القدرة على ضبط النفس التي بواسطتها يتصل بالله، ولكن لكي يصل الإنسان لهذه الدرجة فلا بد أن يسمو بذاته ويتعلق بالله، وهذه التجربة مثل تجربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء، ومن الضروري لك أيضا أن تقيم في حراء قلبك لتحصل على جواهر الحقيقة.

احكم العشق بتقليد الحبيب
حتى يحببك رب العالمين
واجلس في حراء القلب هادئا
واترك علائق ذاتك
وهاجر الى الله راضيا
احكم نفسك بالحق
ثم ارجع الى نفسك
وحطم هوس اللات والعزى[٢٣]

والحب تنتج عنه الطاعة، والعشق يقوى بالطاعة، فالشخص الذي يجد الحب تكتمل شخصيته، وهذا الكمال يصله بالله، والقوة التي يحصل عليها من هذا الكمال لا يمكن أن يحصل عليها من أي مكان في العالم، فالمحبة تعطيه القرب، والقرب يكشف العوالم الجديدة، فالذي يحب الخالق يحب المخلوق أيضا، وفي المقابل يحبه الله.

---

٢٢ «جاويد نامه»، ص ٦١٠، ترجمة: دكتور حسين مجيب المصرى «ديوان محمد إقبال»، جلد ٢، ص ١٥٠.

٢٣ «الأسرار والرموز» / «كليات إقبال»(الفارسية)، ص ٢٢، ترجمة: دكتور سمير عبد الحميد إبراهيم، «ديوان الأسرار والرموز» القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٥٧.

وبهذا الأسلوب يستخدم «إقبال» تعاليم الإسلام كاملة، فقد جعل العشق انعكاسا كاملا للحياة، وأعطى معنى جديدا لهذه الكلمة يكشف الجوانب الرائعة، إن الإسلام مشتق من السلام الذي يعني الأمن، والإيمان مشتق من الأمن وبذلك فالمعنى الكامل للإيمان هو الأمن والحفظ، إن المسلم ليس خاليا من الحب، فإذا غضب فالحب موجود في ضبه، لأن كل أعماله تابعة للقوة العظمى الإلهية، إن حب الله للإنسان أعظم من حب سبعين أم لابنها، فرحمة الله وسعت كل شيء كما قال تعالى في سورة الأعراف، ولهذا قال «إقبال» «إذا لم يكن الإنسان متصفا بالعشق والقوة فهو بعيد عن الإسلام».